لغة الكتاب والسنة

د.
محمد عبد المنعم القيعي
رئيس قسم التفسير

لغة الكتاب والسنة

أ . د
محمد عبد المنعم القيعى
رئيس قسم التفسير

اللغة قومية الفكر ـ وأسلوب أخذ المعنى من المادة ـ والدقة فى تركيبها دليل على دقة الملكات فى أهلها وعمقها هو عمق الروح ، ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير ، والبحث فى الأسباب والعلل ـ وكثرة مشتقاتها برهان على نزعة الحرية وطموحها ، وهى كذلك صورة التفكير . واستقلالها مظهر استقلال الذات ، ووحدة اللسان فيها جزء من معنى الأمة ، واتحاد البيان سبيل إلى وحدة الرأى والثقافة ، وهى كون محدود إذ بذلك لا تترجم اللا نهاية .

تلك دعاوى ندعيها للغة الكتاب والسنة أصفها فى مقال ليتصور قارئنا العزيز ما تقوم به كلية أصول الدين من دراسات فى أقسامها الأربعة التفسير ، والحديث ، والعقيدة ، والدعوة ، وبجهد ونشاط عميدها الأستاذ الدكتور محمود حمدى زقزوق الذى أتاح للباحثين أن ينشروا بحوثهم فى حوليه كليتنا العزيزة علينا بكل من فيها من هيئة تدريسها وموظفيها وعمالها وطلابها .

وقد كتبت هذا المقال راجيا أن يكون عند الحقيقة ذكرة وعند المثقفين تقديره وعند الله أجرة المثقفين .

١ — أما أن اللغة قومية الفكر فلأن المفكر تستدرج فكرته من ذهنه إلى شبكة اللغة لتعبر تلك اللغة عما يدور فى الذهن ومن أجل ذلك قال ابن عطاء الله وكل كلام برز من اللسان عليه كسوة القلب الذى خرج منه(١) وهى لذلك قومية بين الذين يتكلمون بها إلا أن الإسلام بعمومه رسالة نقلها إلى العالمية وأوجب على المصلين أن يحفظوا قدراً منها ممثلا فى سورة الفاتحة التى لا تصح الصلاة بدونها(٢) ، وفى الحديث « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب »(٣) ولا بد لنا من أن نفرق من لغة الرسالة ومن توجه له الرسالة ففى القرآن قوله : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »(٤) فلغة الرسالة عربية والرسالة نفسها عالمية الإنس والجن المرموز إليهما بقوله صلى الله عليه وسلم : « وكان كل نبى يبعث إلى قومه خاصة وبعثت لكل أحمر وأسود »(٥) ، ولا يقدح ذلك فى عموم الرسالة وشاهدة أن الأمم المتحدة لغتها الرسمية هى الإنجليزية ومع ذلك نتكلم عن حقوق الإنسان وتوجه إلى عالم مختلف الأجناس واللغات ومن هذا الاعتبار كان القرآن قد نقلها من بيئته المحدودة إلى عالميتها التى وجه خطابه إلى الإنس والجن كما قال : « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »(٦) ، وقال على لسان الجن « يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به »(٧) . والزعم بأن الجن يطلق على من اختفى ولم

(١) الحكم لابن عطاء الله السكندرى .
(٢) مناهل العرفان للزرقانى .
(٣) المتفق عليه .
(٤) سورة إبراهيم
(٥) صحيح البخارى
(٦) سورة الأعراف
(٧) سورة الأحقاف

يكن معروفا منقوض بقوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن .(١) .

وقوله : « سنفرغ لكم أيها الثقلان »(٢) .

أما الفكر : فهو النشاط الذى يقوم به العقل وقد يكون هذا الفكر مستقيما أو معوجا يتوصل به إلى علم أو إلى ظن كما قد يتوصل به إلى جهل مركب : وهو اعتقاد فى الشىء على خلاف ما هو عليه ، ولا بد لذلك الفكر من مادة وصورة فمادة الفكر هى ألفاظ اللغة وصورته : هى الطريقة التى بها تألف تلك الألفاظ وتنضم بعضها إلى بعض .

فقوله تعالى مثلا : « الله ربنا وربكم » فلفظ الجلالة ولفظ الرب مضافا إلى ما بعده وحرف (و) كل ذلك يسمى بالمادة وجعل لفظ الجلالة مبتدأ وما بعده خبر وتوسط حرف العطف بين اللفظين « ربنا وربكم » هو الصورة والهيئة لذلك التركيب وقد نقل القرآن اللغة العربية من كونها وسيلة من وسائل التعبير والإفهام إلى التغلغل فى باطن الإنسان أيضا فالعربية قد وصلها القرآن بالعقل والشعور النفسى حتى صارت جنسية ، وقد صفى اللغة من اكدارها وإجراها فى ظاهرها على بواطن اسرارها فجاء بها فى ماء الجمال أفلا أمن السحاب وفى طراءة الخلق أجمل من الشباب وقد صار القرآن من اللغة والروح التى تستقر فى مواهب الإنسان فتضمن لآثارها الخلود ثم لا يدل عليها حين التصرف إلا بمواقع تلك الآثار منها فى كل نفس فيجزى ذلك فى البيان عنها كأن هذه الروح تحاول أن تفصح عن معانى النبوغ فيها فلا تجد أقرب إلى غرضها من أن تنتهج الإحساس بها فى كل نفس فيكفى ذلك فى البيان عنها إذ الكلمة فى أصل وضعها العربى هى صوت النفس تلبس

(١) سورة الأنعام .
(٢) سورة الرحمن .

قطعة من المعنى فتفهم الكلمة كيف كانت فى نفس ناطقها قبل أن تكون فى نفس وضعها والقواميس معاجم المفردات والقرآن معجم التراكيب لا معجم لها سواه[1].

٢ — أما أن اللغة أساليب أخذ المعنى من المادة فلابد لنا من أن نحدد كلا من الأسلوب والمعنى فالأسلوب : هو طريقة التأليف ويمكن أن يكون أيضا طريقة للتحليل فهو جماع الفلسفه التى ليست فى الحقيقة سوى فلسفة التأليف أو التحليل سواء اتخذت فى ذلك طابعا جدليا كما هو الشأن عند هجل وماركس إذ يقولان (إن تصارع الأضداد فى أى شىء هو موجود فالشىء الواحد محتو على الضدين يتجادلان إلى أن يتولد عنهما شىء آخر وهكذا دواليك ، وتلك المادية الجدلية تفكر أبسط قوانين العقل الذى يفكر اجتماع النقضين أو ارتفاعهما أم استحدث الفلسفة طابعا بنائيا ، كما هو الشأن عند هملان أم طابعا تحليليا نفسيا كما هو الشأن عند ربو وفرويد أم طابعا اجتماعيا كما هو الشأن عند دوركين فالفلسفة المعاصرة ليست سوى التركيب أو التحليل وكذلك أساليب لغتنا تحلل عند فصل المفردات عن تركيبها وتؤلف عند ضم بعضها إلى بعض .

أما المعنى : فهو الذى وضع بإزاء اللفظ كما تتضع للحيوان المفترس لفظ أسد ، وكما تتضع للحيض أو الطهر لفظ القرء ومن أسرار تلك اللغة أنها قسمت الألفاظ باعتبارات مختلفة باعتبار قسمت الألفاظ إلى مترادفة كالأسد والليث أو مثانية كالأسد والفرس أو مشتركة كلفظ عسعس للإقبال أو الإدبار فى قوله تعالى «والليل إذا عسعس» أو متواطئة وهى التى اندرجت المسميات فى اسم واحد كما اندرج تحت لفظ الظلم أية موحيه واندرج الشرك فيه أيضا وباعتبار آخر انقسمت ألفاظها إلى خاص كقوله «محمد رسول الله»[2]،

(١) إعجاز القرآن .

(٢) سورة الفتح .

وإلى تمام كقوله « قد أفلح المؤمنون » وباعتبار ثالث تنقسم إلى مطابقة بين اللفظ والمعنى كقوله تعالى « يانوح قد جادلتنا » فإن هذا اللفظ مطابق للمسمى به عليه وعلى نبينا صلوات الله وسلامه وإلى تتضمن كدلالة اللفظ على جزء معناه كقوله تعالى « فتحرير رقبة » فلفظ رقبه جزء من المعنى الذى أريد به وهو تحرير العبد كله ، وكقوله تعالى يجعلون أصابعهم فى آذانهم فإن المراد أطراف الأصابع لا كلها ، وإلى التزاميه : وهى دلالة اللفظ على لازم معناه كقوله تعالى « للفقراء المهاجرين » فقد سماهم الله فقراء ويلزم منه أن تنزل ملكيه المهاجر ليصبح فقيراً إذ لو بقيت ملكيته فى المكان الذى هاجر منه لما اعتبره الله فقيراً فى مهجرة وهكذا تنقسم اللغة باعتبارات مختلفة إذ هى غنيه بمفرداتها وصيغها لتملأ حاجات الناس منها « إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »[1].

٣ — والدقه فى تركيب اللغه دليل على دقه الملاكات فى أهلها لأن التراكيب مظاهر لما فى النفس ، والكلام لا يكون بليغاً إلا إذا طابق حال السامع وانسجم السياق فيه وانظر إلى قوله فى سورة الحج « وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت » وفى سورة فصلت « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعه إذا لمقام هنا مقام عبادة يناسبه الخشوع أما فى سورة الحج فالمقام مقام قبور وبعث للموتى فيناسبه الهمود ، ومن وقف على كتاب البصائر وللفيروزبادى رأى فى كل بصيرة ما يثير فى النفس الإعجاب والطرب ، والقرآن يقول مرة « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار »[2] وفى سورة النحل يقول « إن الله لغفور رحيم » إذ الإنسان تجاه ما أنعم الله به عليه ظلوم كفار والله المنعم يقابل ظلم الإنسان لنفسه بالمغفرة وكفارته بالرحمة .

وملاكات الإنسان عديدة : وهى تلك الأمور الراسخة فيه كملكه الحفظ ،

(١) سورة إبراهيم .

وملكة الفهم ، والقدرة على التذكر ، وسرعة البديهة وغير ذلك ، ومن أهمها ملكة التفكير والتعقل والإستذكار وكل واحدة من تلك الملاكات يستثيروها القرآن بطريقته الفذة فيقول مرة [أفلا تبصرون] وأخرى [أفلا تسمعون] ثالثه [أفلا تعقلون] .

ومن دقة ملاحظة القرآن أنه يراعى السياق ففى مقام الهداية التى تعتمد أصلا على السماع يقول فى آخر السجدة [إن ذلك لآيات أفلا يسمعون] ثم يقول [أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون] .

وعلى قارىء القرآن أن يتدبر لغته فإنه أنزل لتكون كل نفس سامية سنحه حيه من معانيه وليكون هو النفس الكبرى فهو كتاب ولكنه مع ذلك مجموع العوالم النفسية كلها ولابد لمن ينظر فيه من إطالة الفكر والتأمل فإن ذلك يحدث له روية وتنشىء له الروية أسبابا إلى الخواطر . وتفتح عليه الخواطر أبواباً من النظر ولله در حافظ إبراهيم فى قصيدته التى قال فيها :

أنا البحر فى أحشائه الدر كامن
فهل سألوا الغواص عن صدفاته
وسل كتاب الله لفظا
وغاية وما ضقت عن آى به وعظات

٤ - وعمقها هو عمق الروح ودليل الحس على ميل الأمة إلى التفكير والبحث فى الأسباب والعلل ، ذلك أن اللغة وعاء الثقافة وكانت لها دلالة واضحة على شكل هذه الثقافة ومضمونها ولونها وإتجاهاتها(١) .

ومما يؤكد مافى اللغة من عمق ، إستخدامها للتعبيرات المختلفة كالأمر المطلق

(١) دراسات فى التربية الإسلامية د/ سعيد إسماعيل على .

فى قوله تعالى « إقرأ بسم ربك » ومطلق الأمر فى قوله « أقيموا الصلاة » فإن الأول لاينقسم ، والثانى ينقسم إلى وجوب وإلى ندب وهكذا يكون الأمر المطلق فرد من أفراد مطلق الأمر ولا ينعكس فالإيمان المطلق يمنع دخول النار ، ومطلق الإيمان يمنع الخلود فيها(١) .

وفى اللغة فروق دقيقة نظراً لزيادة الحروف كالمرضع والمرضعة إذ المرضع من لها ولد ترضعه . أما المرضعة فهى ألقمت ثديها الرضيع وفى القرآن « يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شىء عظيم يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت » .

وهاك بعض القواعد اللغوية التى يتفرع عليها عمق الفهم ودقة التعبير .

(١) إذا وقع جواب الشرط طلبا أفاد العموم ، بخلاف ما إذا وقع فعلا ماضياً ، فإن كان الجواب مستقبلا جاز العموم والخصوص فمثلا قوله تعالى « إن كنتم تحبون الله فاتبعونى » .

فإن هذا الجواب بحكم أنه طلب أفاد عموم الإتباع وبحكم أنه مستقبل إحتمل عموم الإتباع وخصوص الإتباع فيما ليس من خصائصه صلى الله عليه وسلم . أما قوله « إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة والإمام يخطب إنصت فقد لغوت » فإن هذا الجواب لا يفيد عموماً لأنه ماضى .

(٢) الفعل الماضى يصرف إلى الإستقبال بعد أدوات الشرط وفى الوعد وفى الإنشاء ونحوه ، أما فى الأخبار فلا قال تعالى « وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين » .

فتسجيل الكذب عليها نظراً لحادثة وقعت . وينصرف الفعل الماضى أيضا إلى الإستقبال عند عطفه على ماعلم إستقباله نحو قوله تعالى « يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار »(٢) .

(١) بدائع الفوائد لابن القيم .
(٢) سورة هود .

(٣) عشر حقائق لاتتعلق إلا بمعدوم : الشرط والجزاء والأمر والنهى والدعاء والوعد والوعيد والترجى والتمنى والإباحة .

(٤) ألف الإثنين وواو الجماعة وياء المخاطبة فى الإسماء حروف وفى الأفعال أسماء .

(٥) حذف متعلق الظرف والجروالمجرور لايجوز إلا إذا كان كوناً عاماً أو إستقراراً عاماً أما الكون الخاص والإستقرار الخاص فيتعين ذكره قال تعالى « فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى »(١) .

(٦) الإستثناء المنقطع إنما يقع حيث يقع التفريغ ومعناه حذف المستثنى كقوله تعالى « مالهم به من علم إلا إتباع الظن » إذ التقدير مالهم إلا إتباع الظن(٢) :

(٧) الروابط بين الجمل أربع : « أحدها » مايوجب التلازم بين الجملتين نفياً أو إثباتا أو نفياً وإثباتاً أو إثباتاً ونفياً نحو إن إتقيت الله أفلحت وإن لم تتق الله لم تفلح ، وإن إتقيت الله لم تخسر ، وان لم تتق الله خسرت . « ثانيا » تلازم يتعلق بالماضى فقط وهى « لما » .

قال تعالى « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم »(٣) .

« ثالثا » أداة تلازم بين إمتناع الشىء لإمتناع غيره وهى « لو » .

نحو قوله تعالى « ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم »(٤) .

« رابعا » إمتناع الشىء لوجود غيره وهى « لولا » .

قال تعالى « لولا أن من الله علينا لخسف بنا »(٥) .

(١) سورة النمل .
(٢) سورة النساء .
(٣) سورة البقرة .
(٤) سورة الانفال .
(٥) سورة القصص .

(٨) المشهور أن الشرط والجزاء لا يتعلقان إلا بالمستقبل فإذا كان الشرط والجزاء رداً على سؤال أوعلى إعتراض تعلقا بالماضى كقول عيسى عليه السلام لما قال له الله أأنت قلت للناس إتخذونى وأمى إلهين من دون الله ، أجاب « إن كنت قلته فقد علمته »(١) فهذا تعليق خبرى بخلاف التعليق الوعدى فهو خاص بالمستقبل .

(٩) قد يتعلق الشرط بفعل محال الوقوع فتصدق الجملة وتكذب مفرداتها نحو قول تعالى « إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » وفائدة الربط فى هذه أمران .

(١) بيان إستلزام إحدى القضيتين للأخرى .

(٢) إنتفاء اللازمة يستلزم إنتفاء الملزوم وبناء على ذلك فإن الشرط يتعلق إما بمحقق الثبوت أو بجائز الثبوت أو بمحال الثبوت كما هنا فإن إتخاذ الرحمن ولداً محال .

(١٠) لاتحذف الياء من أمر إلا بشرطين .

١ - إتصال الفعل بالمأمور به .

٢ - أن يكون المأمور به حدثاً لاذاتاً .

وهذا قليل من كثير حفلت به اللغة ووضع قواعدها علماؤها وفى الكتاب والسنة طريق المناظرة وتصحيحها أو بيان العلل المؤثرة والفروق المؤثرة أو إشارتها إلى إبطال الدور والتسلسل ، والإجوبة عن المعارضات ، وإلغاء مايجب إلغاؤه من المعانى التى لا تأثير لها ، واعتبار ماينبغى إعتباره .

وإذا تأملت القرآن وتدبرته وأعرته فكراً وافياً ، أطلعت فيه من أسرار المناظرات ، وتقدير الحجج الصحيحة ، وإبطال الشبه الفاسدة، وذكر

(١) سورة المائدة .

النقض والفرق والمعارضة والمنع على ما يشفى ويكفى لمن بصره الله وأنعم عليه بفهم كتابه ، وإليك أمثلة لتتضح الأمور وتتجه الهمم إلى فهم كتاب الله وسنة رسوله وإدراك لغتهما .

(١) حديث « من أعدى الأول فى إبطال الدور والتسلسل » .

(٢) « الغنم تلتقط والبعير لاتلتقط لوجود المقتضى فى الأول كفاية الأبل من الثانى » .

(٣) حديث « أفلا جلس فى بيت أمه وأهدى إليه » .

(٤) حديث بريرة « هو عليها صدقة ولنا هدية » فالصدقة عليها والهدية منها إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأقام تمديل السبب بمثابة تبدل الملك لأنه صلى الله عليه وسلم قال « نحن معاشر الأنبياء لاتحل لنا الصدقة »(١) .

(٥) « رجلان قد عطسا فشمت أحدهما » لأنه حمد الله فوجد المقتضى لتشميته بخلاف الثانى فإنه لم يحمد الله .

(٦) حديث الميتة « إنما حرم أكلها » فلم يحرم الإنتفاع بجلدها حتى توافرت فيه شروط الانتفاع .

(٧) حديث النعمان بن بشير « أيسرك أن يكون أولادك فى البر سواء » فقد أوجب صلى الله عليه وسلم التسوية بين المتماثلات .

(٨) « قصة حاطب ابن أبى بلتعة » وقد لاحظ النبى صلى الله عليه وسلم ما كان له فى ماضيه ولم يؤاخذه وقال لعل الله أطلع على قلوب من شهد بدراً وأخبره أن الله قد غفر له .

(٩) قال لمن قبل وهو صائم وكان مسنا قال له « أرأيت لو تمضمضت » فنزل قبلته منزله المضمضة التى لا تأثير لها فى الصوم .

---

(١) مسلم الثبوت لمحب الدين ابن عبد الشكور .

(١٠) حديث قال لامرأة سألت أن تحج عن أبيها قال . لها « أرأيت لو كان على أبيك دين أكنت قاضية قالت نعم فقال لها فدين الله أحق أن يقضى » فهذا قياس الأولى .

(١١) لم سلم على النبى صلى الله وسلم فى التحيات كان الرد بالتعميم فى قوله السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

(١٢) لما شك أحد الناس أن ولده لا يشبهه فبين له ما للوراثة من أثر وقال « لعله نزعه عرق أحد أجداده » .

(١٣) وليدة عبد بن زمعة لاحظ الاحتمالات وقال لامرأته بعد أن ألحقه بأبيها قال لها لا ولكن احتجبى منه ياسودة » .

ومن القرآن : قال تعالى : « وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا أنهم هم المفسدون ولكن لايشعرون » .

رد الله عليهم دعواهم الإصلاح وسجل عليهم الإفساد وسلبهم الشعور به وهذه غاية فى بلادتهم حيث يفسدون ولا يشعرون أنهم مفسدون .

وقال تعالى فى نفس سورة البقرة « يا أيها الناس أعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون : الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلاتجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين » . فاستدل سبحانه بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية وفى الآية الثانية « الذى جعل لكم » دليلان : دليل الاختراع ودليل العناية فيها ذكر السكن والساكن والسقف وما ينتفع به ثم ذكر النتيجة « فلا تجعلوا لله أنداداً » وفى الآية الثالثة ذكر مايتعلق بالنبوة .

وفى القرآن الكريم كثير من الآيات نتبين من خلالها أقوى أساليب الإقناع وإقامة البراهين وخطوات الجدل الحق كقوله تعالى : « إن الله لايستحى أن يضرب مثلا ما » ، « كيف تكفرون بالله » ، « وإذ قال ربك للملائكة إن جاعل فى الأرض خليفة » ، « ومناظرة إبليس » ، « وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودة » ، « وإذا أخذنا ميثاقكم لاتسفكون دماءكم » « فكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم » ، وفى هذا دليل التشهى والتحكم بقبول مايوافق الهوى ورفض مايخالفه .

« ولما جاءهم كتاب » ، « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا » ، « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الله الناس فتمنوا الموت » ، لا وقالوا لن يدخل الجنة » .

٥ — وكثرة مشتقاتها دليل على نزعاتها للحرية وطماحها فالكلمة الواحدة تطلق على عدة معان كالباء والنون والياء .

انظر إلى صيغ هذه الكلمة فقد تكون فعلا مبنيا للمعلوم وقد تكون مبنية للمفعول كما قد تكون اسما مكبراً أو مصغراً ، مفردا أو مجموعا كل ذلك يدلنا بوضوح على نزعة اللغة للحرية التى هى تحرر من القيود المانعة من الانطلاق وتبدو هذه الحرية فى جلاء عند ملاحظة التشريعات التى تعبر عنها لغة الرسالة الإلهية فعندما يراد تفسير نص من النصوص فإنه لايترك للهوى بل يفسر للنص بنص آخر فى موضع آخر أو يحلل ذلك النص تحليلا يوضح الغرض من وروده وبيان حكمته التى على أساسها يدور الحكم ، فخفوق هذا الكائن الثانى المتغير وهو الإنسان مستمدة من مصدر أزلى والذى يضمنها جزاء الخير أو الشر فى العقيدة الدينية . وفى كل يوم تنتهك الحريات الأساسية انتهاكا متزايداً ويزداد هزال القشرة الديمقراطية .

والأمر المؤسف أن حقوق الإنسان ليست من الطرف النظرى يمكن

الاستغناء عنه فى سبيل تحقيق أهداف أهم ، فإن التجربة أثبتت أن سلب حقوق الإنسان عائق للتنمية مالم يكن لدى الإنسان وعى كاف بحقوقه الأساسية ، وكل مذهب يتسم بقدر من السمو المعنوى لايقبل الإنسان على ماهو عليه فى أنانية ورذائل الإسلام فى جوهره إنما هو رفض للإنسان فى واقعه اللا أخلاقى .

وإن زوال حكم العقل ، وانعدام النقد والمناقشة وتأكيد السلطة المطلقة ، هو قاسم مشترك بين التطرف الدينى والإستبداد السياسى .

وإن الديمقراطية تعترض سيادة حكم العقل ، وانكماش السلطة المطلقة وعملية الاختيار الحر بين اتجاهات سياسية واجتماعية متعددة تفترض قدراً لابأس به فى العقلانية يسمح بالمقارنة وفى مثل هذا الجو يذبل التطرف من تلقاء ذاته دون حاجة إلى القمع أو إلى خوض معارك دموية وإن الديمقراطية لاتحارب هذا الفكر المتطرف وإنما تزيل أسباب وجوده فالتطرف لايجد الظهور فى أرض صالحة أما الاستبـــداد السياسى فإنه يعطى التطرف كل مقومات وجوده ويهيء له المناخ الذى يسمح له بالازدهار وإن التطرف لايمكن حصره أو رسم خط أحمر لايصح له أن يتعداه والاستبداد يدخل مع التطرف فى علاقة شديدة التعقيد فينعشه ثم يخنقه فى مأساة لامفر منها فالحاكم الديمقراطى عدو التطرف الذى لايسمح له بالظهور .

وإن هذا الإيمان المتوحد لابد أن يكمله اقتصاد قوى ويسنده علم متقدم وتدعمه تكنولوجيا راقية ويحافظ عليه نظام سياسى متين ، حتى يحـــدث ما أحدث الإيمان الأول فى صفوف المؤمنين وإن فلسفة الدين فى المجتمعات المتقدمة فرع هام من فروع الفلسفة ولم يزعم أحد بأن هذا الفرع يستهدف النيل من العقيدة بل هو يستهدف تعميقها وإثراء التفكير فى مشكلاتها مثل طبيعة التجربة الدينية وأهميتها والسمات المميزة للإيمان الدينى عن غيره ومكانة الدين فى الثقافة الإنسانية وطبيعة الرمز الدينى واللغة الدينية والقاء الضوء على المفاهيم الأساسية كالوحى وغيره .

وليس من حق أى مجتمع أن يحارب هذه الأفكار المستوردة وهو يستورد كل شىء حتى العقـــول وإن كثيرا من التعبيرات منى أصبحت وسائل الإعلام تعلمها علينا لا ينبغى أن تقبل على علاتها .

فالذين يعتمدون على أساليب دعائية لا ترتكز على عقل ولا منطق يفرضون علينا أن نناضل فى سبيل أهداف عفا عليها الزمان والمصالح العمليه تشابكت مع الفكر النظرى تشابكا وثيقاً .

ومن القسوة المفرطة أن تحرم المظلوم المضطهد حتى من الأمل فى حياة أخرى أفضل من حياته التعسة أو أن تسلبه الإيمان الراسخ بأن فى الكون نظاما عادلا ، والحقيقه أن التيار المعادى للدين موجود فى كل زمان ومكان وعلينا مواجهته فإن مهمتنا الأساسية ورسالة الأزهر أن يجدد عمل النبوة فى الشعب وأن ينقى عمل التاريخ فى الكتب وأن يبطل الوثنية فى العادات وأن يعطى الأمة دينها الواضح السمح الميسر ولا سبيل لذلك إلا أن يكون الأزهر قائما بقيادته الدينية و الثقافية وكان الدين عودة إلى الأعماق السحيقة فى ساعة الخطر ، ودعوة إلى انبعاث أعمق ما فى الذات الاجتماعية لمواجهة أى عدو دخيل غريب ، فالحرية التى تشير إليها اللغة هى فى الحقيقة تراث الإنسان قال بعض الفلاسفة ليس لأى لفظ معنى إلا فى مجرى الحياة ومعنى هـــذه العبارة أن للألفاظ تراثا حيا وأنها تحمل بالضرورة شحنات وجدانية لا يتكفل بتفسيرها إلا الإطار الحضارى ، والروح الفلسفية هى أحرص ما تكون على اجتناب الوقوع فى شراك المشاكل الزائفة أو المسائل الموضوعة وضعاً سيئا(١) .

ومادامت الحكمة الإلهية قد أرادت من النص الدينى أن يكون حافزاً للإنسان إلى العمل وإلى المزيد من الإرتقاء فإن الإجتهاد البشرى فى كل عصر

(١) الفلسفة المعاصرة زكريا إبراهيم .

من العصور هو الذى يمكن المجتهد من أن يهتدى إلى معان متغيرة ومتطورة يشملها النص الدينى الواحد .

(٦) اللغة صورة التفكير أيضا واستقلالها مظهر إستقلال الذات ووحدة اللسان جزء من معنى الأمه وإتحـــاد البيان سبيل إلى وحدة الهوى والرأى والثقافة .

وذلك أن صور التفكير عديدة وهى مجسمة فى اللغة التى نعبر بها وإن أداة الإدراك فى مجال العلوم المختلفه إيجاداً وتطبيقاً هى العقل بأجهزته القادرة على التحليل والإستدلال(١) .

ولكى تحيى اللغة لابد أن تتناول مشكلات العصر من كل جوانبها ، فإن نحن تناولنا فى اللغة مشاكل ليست موجودة أو هى مفروضة لم تقع بعد فقد قضينا على تفكيرنا بالذبول وعلى لغتنا بالفراغ من كل معنى يرجى له أن يكون وإن أحداً لا يستطيع أن يتمرد على عصره إلا إذا أراد لنفسه الموت.

وإن مضمونات المعانى إذا وجدت ، فهى قد تضلل الناس بسبب مشاعرهم الخاصة إزاء تلك المعانى ، فلو أن شيعى أو سنى أو معتزلى تناول نصاً فإنه لا يصعب عليه أن يطوع ذلك النص لهواه وما يتفق مع نزعته والعاصم من ذلك قواعد التفكير الأساسية وقوانين العقل التى لا يقبل غيرها مثل قانون الذاتية وعدم التناقض والوسط المرفوع وربط المعلول بعلته وإبطال الدور والتسلسل وغير ذلك مما لا يمكن أن ينازع فيه عقل سليم وإن اللغه فى أى وضع من أوضاعها ليست هى الشىء أو الحالة أو الموقف الذى جاءت تلك اللغة لتتحدث عنه فمثلا إذا قلنا فاض النيل فليست هذه الجملة هى عين فيضان النيل .

(١) رؤية إسلامية زكى نجيب محمود .

فاللغة من حيث هى حاملات للمعانى ورامزات إلى الأشياء تحتم على المتلقى لها أن يزاوج بين تلك المعانى وهذه الأشياء .

وإن أدلة الإثبات لابد أن تستند إلى شىء فى فطرة الإنسان ، فمن صور التفكير أن نربط المسببات بأسبابها إلى أن نصل إلى نقطة ثابتة فى الفطرة الإنسانية لايختلف عليها إثنان فإذا قلنا من أوجد هذا ثم كررنا نفس السؤال فلا محالة أننا سننتهى إلى نقطة مركوزة فى أن الخالق لابد أن يكون مخالفاً للمخلوق فى كل شىء وفى الحديث : « إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول من خلق فإذا انتهت إلى ذلك فقال آمنت بالله »(١) أو ليس معنى أن إيمان النفس الباطنة أمر لايحتاج فى حقيقته إلى برهان اعتمادا على الفطرة(٢) .

وعليه فإن معنى تسليم المؤمن إرادته لمشيئة الله أن تكون هذه الإرادة منصبة على المبادىء التى رسمتها المشيئة الإلهية وليست هى مقيدة بصورة من صور التطبيق ، فإن كل إنسان مسئول عن عمله والاعتماد على القضاء والقدر ينافى المسئولية التى هى أهم من خصائص الإنسان(٣) فلنتعرف الأصول قبل أن تعرف الفروع التى انبثقت منها وأهم صور التفكير فى عصرنا ماركس بمذهبه ومنهجـــه ، وداروين بنظريته ، وفرويد بتحليله للنفس ، وإينشتين بنسبيته .

فإذا احتفظ الإنسان بهويته وما ينطلق منه إلى غايته ، كانت لغته تعبيرا صادقا عما يجول فى خاطره ، أما إذا كان منساقا وراء فكرة من الأفكار يتشيع لها من غير أن يعرف أصولها وما تستهدفه من وراءها ، فإنه فى تلك الحالة يكون قد جرد ذاته من هويتها وأفقد لغته استقلالها والفكرة الرئيسية استخدام العقل عنـــد فهم نصوص الشرع بحيث نلتمس طريقا

(١) البخارى .
(٢) عبقرية محمد للعقاد .
(٣) عقائد المفكرين للعقائد ،

تصان فيه أحكام الشرع وأحكام العقل معاً ، والشرع كالشمس والعقل كالبصر(١) .

وبهذا نكون قد حصنا أنفسنا بالدين والفكر الحر السليم معاً وإن المواهب الخلاقة ليست مرهونة لون أو جنس وإنما هى مرهونة بنظام اجتماعى يحيها أو يميتها .

فما مضى لايزال فى لغتنا وعقائدنا ومبادئنا وطابعنا القومى ولن يتحقق لنا أمل التقدم إلا والماضى وصدر إلهامنا لاعصا لتأديبنا .

فإن التقليد حتى فى الإيمان لمن هو قادر على المعرفة بدليلها مصدر وبال على صاحبه . ولذا فإن المسلم يتحرك بدافعين الدين والمعرفة العلمية فبالمعرفة العلمية نعرف الواقع وبالدين نعرف الحدود الجائزة فى التعامل مع ذلك الواقع الذى عرضناه .

وإنه لامراء فى أن إحياء الروح الدينى وقيم الأسلاف ضرورة لاغنى عنها فى ترسيخ الشعور وتثبيت الهوية الخاصة بنا .

والفكرة لاتكون فكرة إلا إذا كانت منطويه على شىء يصلح أن يكون أداة لحياة أقوى وأكمل . والدين إحساس عميق ينبض به قلب الإنسان من حيث يدرى ولا يدرى .

ووحدة اللسان جزء من معنى الأمة فإن الأمة أفراد متناثرة ومبعثرة هنا وهناك تجمع شتاتها أفكار محددة ولغة واحدة وإن أى إنسان ما هو إلا مجموعة علاقات تربطه بعدة أطراف أحياء وأشياء ومعان يلتقى عليها الجميع .

وإن الناس يعبرون عن ثقافتهم فى مواقفهم من الحياة العملية ، فإذا

(١) المنقذ من الضلال : للغزالى .

إندمجا لاتنشأ أمام الفكر مشكلة لأن طريق السلوك يمهد أمامه وتحدث فجوة إذا لم يحصل الإندماج . ووحدة اللسان من أهم الوسائل لذلك الهدف ، وإتحاد البيان سبيل إلى وحدة الهوى والرأى والثقافة .

وأغرب الغرباء من صار غريبا فى وطنه ، وبعيدا فى محل قربه :

وإذا سقطت الثقة بموجب الألفاظ الصريحة ، فلا يبقى للشرع عصام ، يرجع إليه ويعول عليه . واللغة للإيحاء والدلالة معاً للتعبير وللتحديد أداة عروج إلى السماء ووسيلة إتصال بالواقع ، البعض يتخذونها أداة ترمز إلى الواقع المحسوس ، وأخرون يتخذونها عدسات ينفذون منها إلى اللانهاية والخلود . وهى مع ذلك كون محدود لايمكن أن تترجم اللانهاية ولا معرفة بدون تحليل بغير رموز والرموز هى تلك الألفاظ التى نتكلم بها . وعلى أساسها تنبعث خلافاتنا وعليها تدور أسئلتنا :

(١) هل يتحتم أن يستعين الإنسان بلغة تنقل الأحساس إلى أفكار ؟

(٢) هل تعتمد دقة التفكير على دقة الألفاظ المستخدمة منه ؟

(٣) هل يرجع الإتفاق بين الناس على نتائج معينة إلى دقة لغاتهم فيها ؟

(٤) هل علة الخلافات بين الناس عدم دقة لغاتهم فيها ؟

(٥) إذا قدمت اللغة الناقصة فهل تصبح كل العلوم على إختلاف ضروبها مضبوطة النتائج ؟

والحق أنه لايتوقف الخطأ على اللغة فقط بل هو يتعداها إلى المزاج والظروف والآراء المسبقة والمصالح والإهتمامات .

ولغة الكتاب والسنة وعاء يصب فيها الأدب والفكر والتخاطب والتفاهم بحيث يحفظ لكل شىء خصائصه المميزة له فإذا أردت الأدب الذى ينشأ الأمة « إنشاء » ثانيا ويدفعها إلى المعالى دفعا ويوجهها بدقة الإبرة المغناطيسية إلى الآفاق الواسعة ويسددها فى أغراضها العالية ، وينفذ بها من ظواهر الكون

إلى أسراره وجدت القرآن الحكيم قد وضع الأصل الحى فى ذلك كله ، وأعجب ما فيه أنه جعل هذا الأصل مقدساً ، وجعل هذا التقديس عقيدة ، وأظهر تلك العقيدة ثابتة لاتتغير ، قال أبو العلاء : وأجمع ملحد ومهتدى وناكب عن المحجة ومقتدى ، أن الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بهر بالإعجاز ، ولقى عدوه بالإرجاز ، ماخذى على مثال ، ولا أشبه غريب الأمثال ، ماهو من القصيد الموزون ، ولافى الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا هو من سجع الكهان ذوى الإرب وإن الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أوضح كلم يقدر عليه المخلوقون فتكون فيه كالشهاب المتناسق فى جنح عنسق ، أو الزهرة اليانعة فى جذوع ذات نسق ، خذ مثلا أى كلام من كلام البشر وضع بين كلماته كلمة فى كلمات الله وسوف ترى لكم بالنور أشرقت وبالجلال والجمال بدقه ، وكتب عليهم هواها المحتوم « جند ماهنا لك مهزوم » .

أما البلاغة النبوية فإنها فى إختصارها وإفادتها نبض قلب يتكلم وهى فى سموها وإبحادتها مظهر فى خواطره صلى الله عليه وسلم .

إن خرجت فى الموعظة قالت أنين قلب من فؤاد مجروح ، وإن راعت بالحكمة قلت صورة بشرية من الروح فى منزع يلين ينفر بالدموع ويشتد فينزوى بالدماء كلام الأرض بعد السماء ، كأنما وضع يده على قلب اللغة ينبض تحت أصابعه فانظر كيف يكون الكلام الذى خرج من نفس تسع مابين الأرض وسمائها وتجمع الأنسانية بمعانيها وأسمائها وهو فى صلته بالأرض كأنه فلك من الأفلاك وفى صلته بالسماء كأنه ملك من الأملاك ، ولسنا نعرف فى هذه العربية أسلوباً يجتمع له مع تلك الخاصية الفريدة هذه الصفة على السواء فى الحدة والرصانة ، مبنيا من الفكرة بناء الجسم من اللحم متوازنا فى أعصاب الألفاظ وأعصاب المعانى ، يثور وعليه مسحه هادئة كأنه فى ثورته على

إستقرار ، فتراه من ظاهره كالنجم المتقد يكون فى عينك نور ، وهو فى حقيقة أمره نار .

ومن تأثيره صلى الله عليه وسلم من اللغة ينقل بعض الألفاظ ، وفى البيان بالتصوير الرائع ، ومن الحكمة بالقول المحكم ، قوله صلى الله عليه وسلم « مات حتف أنفه » ، « حمى الوطيس » ، « هدنة على دخن » « بعثت فى نفس الساعة » ، « لكل أرض بسيمائها » ، « لاتنطح فيها عنزان » « رفقا بالقوارير » « هذا يوم له مابعده » . والغض من شأن الجمال التعبيرى بدعة من بدع عصر إعتلت فيه الأذواق وإختلت فيه المقاييس . نريد علماً من فن ، وشعوراً فى شعر ، وواقعاً فى خيال ، وحقيقة فى مجاز ، وفكرة فى صورة .

وبعد : فهذه نبذة وجيزة عن لغة الكتاب والسنة ومن جعل أنفه فى قفاه فإن السوأة أن يفتح فاه .

أ. د محمد عبد المنعم القيعى
أستاذ ورئيس قسم التفسير
وعلوم القرآن بكلية أصول الدين